التغيّر الاجتماعي وقضيّة الهـوّية الثقـافية

الدكتور نور الدين طوالبي
أستاذ بجامعة الجـــزائر

● أصبح من الملاحظ الاعتقاد ان الاستقلال الوطني (لدول حديثة الاستقلال) تتبعه اضطرابات مستمرة تصل الى حد اعتبارها طبيعية في مجملها، بعض هذه الاضطرابات ناتج عن الصراع الداخلي قصد الوصول الى السلطة، وبعضها الآخر ناتج عن سعة حاجات الافراد نحو تحقيق العديد من الطموحات التي كانت تحيا كامنة منذ مدة في الخيال الجماعي، هذا فضلا عن الاضطرابات ذات الطابع السياسي والوجوداني في آن واحد والتي تدفع هذه الدول الى ضرورة اختيار اديولوجية اصيلة خاصة بها.

لم تشذ الجزائر غداة الاستقلال عن هذه القاعدة، حيث عاشت كل هذه البلابل وهذه الغليانات التي لم يزل بعضها فعالا ولم يمت رغم مرور الزّمن.

خلافا لكل هذه الاضطرابات، تعد المسألة الثقافية في الوقت الحالي من أكثر المسائل تعقيدا، ولـذلك نوليها في حديثنا هذا اهتماما بالغا، دون ان ندعي اننا نسلم بمختلف مظاهرها وآثارها الاجتماعية المتعددة.

ويهدف موضوعنا هذا الى تقديم عناصر توضيحية يمكن ان تساهم في الحديث حول الـدّين والـطقوس وتنيره لما تشكله هذه الموضوعات بصفة مستمرّة لأرضية هامة للمسألة الثّقافية لجزائر ما بعد استرجاع سيادتها.

ماذا كان يمكن ان يحدث للجزائر بعد استرجاع السيادة الوطنية مباشرة؟ وكيف تمنّى الجزائريون النّظر الى غدهم القريب ومستقبلهم البعيد؟

الغد القريب قد يتمثّل في بناء اقتصاد استقلالية البلاد وضمد جروح حرب التحرير الوطني، وانشاء المؤسسات السياسية الجديدة الاولى، هذا ما تم محاولة القيام به بعد مرور الافراح الاولى من الحرية.

بينما كان يخفي المستقبل البعيد مشروعا سياسيا اكثر عمقا، ومن المؤكد انه اكثر اهمية : كترسيخ الوحدة الوطنية باعطاء الجزائر شخصيتها وثقافتها الخاصة بها، هذه الارادة في تأهيل الثقافة الاصيلة يمكن لمسها من خلال الحديث السياسي للحكومة الجزائرية الاولى، ولا داعي للتذكير هنا بمدى تقبل الجماهير لمثل هذه المشاريع، وكأن الحقد، والكراهية للمستعمر لم يضمحلا بعد. وأكثر من اي وقت مضى كان لابد من التخلص من ادنى دلائل النظام الاستعماري : باستئصال المحارب لكل الذكريات المؤلمة المعاشة من أذهان الناس وفي اسرع وقت واعطاء اللغة العربية مكانتها، والتأكيد القوي الفعال بكل الوسائل على الهوية الثقافية الوطنية، الا نكون بهذا امام ردود فعل طبيعية لازالة العقد؟

بينما كان المشروع السّياسي الاول للاصلاح الاقتصادي وتأسيس قوانين قضائية جزائرية يطرح مشاكل كبيرة، تطلب المشروع الثاني، والمتمثل في استعادة كاملة للثقافة الوطنية، اكثر من مجرد ارادة جماعية في عملية الجزأرة بل تطلب ـ ولا بد ان يقال ـ العودة الى الخيال والتصور لأن مثل هذا المشروع لبناء اديولوجية وفق نموذج جزائري بحت، وان كان يستند على اساسين شرعيين : سياسي ووجداني فانه اصله يتعارض في آن واحد مع متطلبات الواقع الذي يتفرّع هو الاخر الى صنفين :

1) ـ اغداق الافراد بالنّماذج الاجنبيـــة

مهما كانت قوة المقاومة تجاه المستعمر، فلم تتمكن هذه المقاومة من الحد من التسلل التدريجي في البلاد للنماذج الغربية التي تلقتها خلال 130 سنة من الاستيطان الاستدماري، ونتج من جراء هذا أي بعد استرجاع السيادة الوطنية وضع إجتماعي (او سوسيولوجي) متميز بمثاقفة واسعة مست سكان المدن بصفة خاصة، السكان الذين نعتقد انهم لازموا النماذج الاجنبية واحتكوا بها عكس ما كان عليه رفاقهم في الريف.

لابد ان يضاف الى هذا الوضع الاجتماعي ردود فعل نفسية هامة : فبعد مرور الغليانات الاولى للاستقلال وبعد ان كانت النماذج الأجنبية مقرونة في خطورتها بأصحابها الفعليين، فقدت رموزها العدوانية لتصبح اداة ترقية واسعة النطاق، مع العلم ان استرجاع الحرية بعد الاستقلال يتبع تقليديا برغبة عامة في الرفاهية، الرغبة التي تدخل في مجرى تاريخ دوافع الفرد المستعمر كتعويض متأخر لاحباطاته السابقة والماضية.

ومن هنا نفهم لماذا بعد اكثر من قرن من الحرمان والعذاب المستمر يحم الفرد الجزائري ما بعد الاستقلال بحاجات لامحدودة فيرخى العنان لطموحاته ورغباته، ويعبر في بعض الاحيان جنوبه بها عن حاجاته النفسية في تعويض مخلفات الحياة السابقة. وفي هذا المستوى من الدوافع الجماعية كانت (1) النماذج التي تركها الاستعمار وخاصة النماذج التقنية وسائل واهداف في آن واحد لهذه الرغبات.

2) ـ المتطلبـات الاقتصاديـة

بعـد انتزاع الاستقلال ومرور اوقات الافراح والابتهاج كان لابد من العودة الى تبين الـواقـع : المتميز بفراغ في الهياكل الاقتصادية الموروثة من الاستعمار، ومما زاد الطين بلة والامر تعقيدا النزوح الجماعي للايدي العاملة المختصة (كالمعمرين)، مما تطلب فورا القيام بمجهود قوي لتصنيع البلاد، وضرورة ضمان سريع لقواعد اقتصاد وطني حقيقي، وتوفير شروط استقلال كامل. الا ان الانطلاقة الاقتصادية ـ من اجل تكرار تعبير سابق ـ جعلت من الضروري بلورة الجهود في القطاع الصناعي كاستراتيجية للتنمية، والتي اعتبرها الرئيس الراحل «بأولوية الاولويات».

ورغم شرعية ومبدأ ارادة تصنيع سريع للبلاد والتي كانت تظهر في الحديث السياسي المجرد انها غير متعارضة (2) مع اتجاه اخر يتمثل في العمل من اجل استرجاع الخصوصيات الوطنية، ان ذلك ليس مؤكدا وحقيقيا بالضرورة، لما كان يتطلبه التصنيع من انفتاح كبير على تكنولوجية للعالم الخارجي من جهة واستيراد تقنيات التصنيع من جهة اخرى، هذه التقنيات المرتبطة بالفكر المبدع لمنشئها وصانعها، ويتطلب التحكم فيها مسايرة الاديولوجية التي اوحت بها واخرجتها الى الوجود. هذا فضلا عما يرافق مجهودات تكوين الاطارات والتقنيين والمختصين لتغطية مختلف قطاعات الانشطة من استعداد ضروري لادماج عناصر اديولوجية غربية في هذا التكوين، وتعمل هذه الاستعدادات على زيادة توطيد نظام المثاقفة السابق.

ويتبـين من اول وهلة المشكـل المـطروح للجـزائر يتمثل في صعوبة اختيار ذي اهمية مزدوجة، الا انه مطروح من وجهة نظر ايديولوجية وبتعبير متعارض ومتناقض نسبيا : حيث تمثـل وجهـة ارادة البـلاد لضـمان انطلاقة اقتصادية ولو بثمن التنازل ـ يقال انه شكلي ـ للايديولوجية المسيطرة في الماضي، والوجهة الاخرى تتمثل في انشاء نظام اجتماعي وثقافي يساير في معظمه المباديء الاشتراكية المستمدة من الايديولوجية العربية الاسلامية.

سبق وان اشار ج. بارك (1969) الى هذا التصادم سنة 1960 في جميع البلدان العربية السائرة في طريق النمو، واهتمامنا هنا يخص تساؤله القائم عندئذ والمتمثل في «كيف نبقي كياننـا ونحـافظ عليه، عندما نود في اكثر من ميدان ان نجمع الاهداف ونسلك السبل ونتكلم لغـة ثورة صناعية...» ويعترف هذا العالم ستة عشر سنة بعد ذلك اي في سنة 1976 بأن المشكل لم «يتغير بشكل هام» عما كان عليه، (ج. بارك 1969، ص. 25) وفي نظرة الكاتب لمشكلة «ازدواج الحوار بين اصالة انفتاح والخاصي والعالمي... (1969 ص. 25) لا تزال حديثا آنيا في العالم العربي الذي كان يراه الكاتب من ستة عشرة سنة خلت يتحول الى تنقل من «المقدس الى التاريخي» (3) (نفس المرجع ص. 18).

والسؤال الذي نطرحه الان هو : هل توقف الانتقال (4)؟ بلى، ولكن المتوقع انه متردد في احتمالات ذات اوضاع مغلقة حيث تكون دعوة الخاصي الى التحول دون ان يمس من «التاريخي».

ومهما كانت مواقف البعض المبدعة في انكار طابع اشكالية هذا التضارب فالمهم هو موقف العالم النفسي الاجتماعي الذي ينظر في الاخير الى كون هذه المتطلبات ضرورية من جهة وذات مراجع ثقافية مزدوجة من جهة اخرى، غير مريحة ويصعب على الفرد تحملها.

وستكون لنا اكثر من مناسبة للحديث عن النتائج النفسية لهذه الوضعية الثقافية التي لا تحدد ظروف وشروط التلازم الوجداني المتناقض فحسب، بل تدفع الفرد الى حياة ثقافية مبهمة الى صراع عنيف في بعض الاحيان.

اما الآن فيستقطب انتباهنا متابعة البحث عن العناصر التاريخية والمجتماعية التي تشكل اصل هذا «البين الثقافتين».

فالعناصر التاريخية التي اشرنا اليها الى حد الآن جاءت لمحاولة تفسير مشكل عودة ضالة او متقطعة الى الاصل. بينما رأينا صعوبة تتوافق ونجاح مشروع تأهيل الثقافة الاصلية وتعارضها مع مخلفات الثقافة الاستعمارية من جهة، وصعوبة تكاملها مع اهداف التطور الاقتصادي من جهة اخرى.

اما النقطة الثالثة ـ وهي اجتماعية تاريخية ـ وتتمثل في الهجرة الريفية التي تعمل من جهتها على مضاعفة دلائل التناقض الوجداني، لأن اثارها قيدت مجهود المجتمع الجزائري نحو الرقي والازدهار (العصر) او كما قال ج. بارك (1969) نحو انتقاله الى «التاريخي» ونفهم بالتالي الاسباب الموضوعية التي عملت على الاقل على احداث الغموض والابهام في علاقة الفرد بثقافته (5)

انها الظاهرة التاريخية التي شهدها المجتمع الجزائري غداة الاستقلال في الهجرة الجماعية لسكان الريف نحو المدن، ومخلفات هذه الهجرة يمكن لمسها الى حد الآن، فاذا كانت من الجانب الاقتصادي قد ادت الى هجرة الارض الفلاحية على حساب الاقبال الشديد على المهن التكنولوجية المتحكم فيها قليلا او بعيدا، والى زيادة الكثافة السكانية في المدن مع مضاعفة ازمة السكن والبطالة، فان نتائج هذه الهجرة على المستوى النفسي الاجتماعي تبقى مأساوية الى حد السّاعة، لما يضاف الى كثافة السكان والبطالة من اتجاهات الافراد نحو الرفاهية والعيش الرغيد (او السهل) كل هذه الاسباب ادت الى ظهور مشاهد لجملة من السلوكات المشوّهة والمضطربة كالأمراض العقلية وجناح الاطفال والكبار او الراشدين.

وتأتي «حملات التطهير» المقررة من طرف السلطات العمومية الجزائرية في اكتوبر 1979 لتعبر عن ملاحظة هذه الوضعية في كل القطاعات من الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

ويعود كثير من «الامراض الاجتماعية» التي تميز المدن الجزائرية الى نتائج الهجرات الداخلية. وهذا ما يتبين من خلال الحديث الرسمي الذي يحاول تحديد الاسباب التاريخية لهذه الظاهرة من اجل فهمها وقصد محاربتها. تشير الاحصائيات الرسمية التي نشرتها كتابة الدولة للتخطيط (1972/70) الى ان نصف سكان المدن من اصل ريفي وبهذا يمكن ان نفكر وبمنطق سليم لنقول بأن عددا من السلوكات الاجتماعية المشوهة ناجم عن الخلط والامتزاج الفوضوي لسكان المدن.

ويتكلم ب. اتيان (1977) عن «عمران غامض» ليعبر عن اسلوب امتزاج السكان واتجاهاتهم في المدن الجزائرية. ويوضح في دراسته الى اي حد تبعث هذه الاوضاع المجتمعة على الانزعاج والقلق من النتائج الاقتصادية للهجرة الريفية في الجزائر.

ويكـون من الافضل و من المهم التطرق الى العديد من النتائج النفسية والاجتماعية للهجرة. ومنذ عهد قريب فقط اشار احد الاجتماعيين الجزائريين الى هذه الملاحظة المثيرة بقوله : «ان المدن الجزائرية تتجه اكثر فأكثر الى الطابع الريفي» فعلا يكفي ملاحظة الطابع المخالف للاداب لبعض سلوكات اصحاب المدن، لكي يتضح لنا ذلك. بينما نجد في تمثيل الافراد لأدوارهم من خلال اتجاهاتهم مميزات الحياة الريفية البدوية وبالتالي فلا غرابة من تناقض بعض مواقف الافراد والتي نذكر بعضها فيما يلي رغم حاجة الاسرة الى المال :

● معارضة رب عائلة من مستوى اقتصادي واجتماعي ضعيف على اشتغال ابنته الكبرى وموافقته على ان تتعلم وتواصل دراستها العليا.

● رب عائلة اخرى من مستوى اقتصادي وتعليمي عال، يمنع بشدة زواج ابنته غير المقرر من طرف الوالدين، وهذا بعد ان كان موافقا على حريتها في الخروج واستقبال اصدقاء لها من كلا الجنسين (ذكورا واناثا).

حالة اخرى اكثر تعبيرا عن هذا التضارب في القيم الثقافية والمتمثلة في اتجاه هذا الرجل الديني، الذي يعارض بشدة مواصلة بناته لدراستهنّ العليا في الجزائر للمحافظة على الطابع الثقافي والفكري للاسرة وسمعتها المحترمة، الا انه وفي الوقت نفسه يعمل على ارسالهنّ خفية الى فرنسا قصد اتمام هذه الدراسة.

هذه السلوكات تترجم بدون شك عن الخلط في الدوافع والرغبات، ومن اجل فهم وتبين نتائجها واثارها النفسية الاجتماعية المختلفة ينبغي القيام بتحريات ليس في عمق شخصية الجزائري فقط بل في علاقات هذه الشخصية بالثقافة.

ان لهذا العمـل الخاص بنا جزئيا ـ رغم تواضع اهدافه ـ مكانة لتناول اتنو تحليل نفسي Ethnopsychanalyse للحياة المعيشية للثقـافـة (ج. دوفرو 1970) يمكن ان تقدم توضيحا للمجتمع الشامل (ج. قورفيش 1963) ولاضطراباته كما يعمل على توضيح ديناميكيات الأنا.

بعد هذا الفاصل المنهجي، نعود الى مسألة الهجرة التي يتضح انها لعبت دورا لا يستهان به، في تعقيد الوضع الثقافي في الجزائر، هذا التعقيد الذي سبق لـ .م. لشرف ان اشار اليه سنة 1965 عندما كان اول من تحدث عن هذا «البين الثقافتين».

فبعد ان اعتبرت هذه الوضعية بالمرحلة المؤقة لتداخل ثقافي ورث من عهد الاستعمار - تحولت وبفضل تضافر عدة عوامل واسباب الى تصادم ثقافي حقيقي. وخلاصة لهذه العوامل والاسباب يمكن ذكر اثنين هامين :

1) ـ العـــــوامل التاريخيـــــة :

هي العوامل التي شكلت الميدان المناسب والمفضل لنشوء عمليات التناقض الوجداني الثنائي. بينما المثاقفة التي نالت اتساعا نسبيا بين مختلف سكان المدن غداة الاستقلال كان بامكانها مساعدة المشروع السياسي للجزائر من اجل الوصول الى مستوى من الرقي والى احتـلال مكانة في عداد الدول والامم العصرية لولا انه كان لابد من اعتبار العديد من العـراقيل والمـوانـع. اكثرها وجدانية وايدلوجية لافراد عاشوا عشرات السنين من القمع الاستعماري والثقافي بصفة خاصة ـ وقد جعلتهم هذه العراقيل والموانع يقبلون على طلب تعـويض في العودة الى القيم التقليدية، بينما عملت في ان واحد جاذ بيتهم نحو النماذج العصرية على تغيير وتعـديل دوافـع العودة الى الاصالة باعطائها طابعا توفيقيا. والامثلة السـابقة الذكر لاتكفي في تقديم مختلف الحيل التي هي امام الافراد لتفسيرهم المتدوال لمواقفهم العصرية تارة والتقليدية تارة اخرى او كلاهما معا.

2) ـ العـــوامل السياسية :

تعـطي هذه العـوامـل بصفة رئيسية المشروع الوطني المزدوج الاهتمامات والضرورات والمتمثلة في بناء نظام اجتماعي اقتصادي شبيه ببقية النظم العالمية، من جهة واعادة تأهيل الثقافة والهوية الوطنية من جهة اخرى، ورسميا فان مثل هذين المشروعين بعيدان كل البعد عن اي تعـارض او تنـاقض، الا ان الواقع الظاهري والجلي يكشف ويشهد على وجود تعارض عميق في بعض الاحيان من جهة وعدم توفر امكانية تجاوز هذا التناقض من جهة اخرى ولهذا نتفق مع (ج. بارك) (1969) لنصف دور هذا المشروع في الوقت الحالي بدور سلبي نحـو «المقـدس» اي نحـو كيان الفـرد، وتدل هذه الوضعية الصعبة للجزائر عن التدحرج باستمرار بين التقليدي والعصري دون التمكن من حل نهائي لمشكلة الازدواجية التي نعيد ذكرها هذا تحت مفهوم وضعية التناقض الوجداني الثقافي.

ان نتائج هذه الوضعية عديدة، منها الاقتصادية : (اضعاف الريف الجزائري من جراء الهجرة الجماعية)، والنفسية : (المتمثلة في خلط القيم لسكان المدن بصفة رئيسية، الخلط الذي لايمكن الا ان يكون مصحوبا بمختلف الصراعات، مثلما سنرى.

تمكن م. لشرف (1965) رغم كونـه رجـل سياسة اكثر منه عالما نفسيا اجتماعيا من توضيح بعض هذه الصيغ في اختلافات الثقافة وتناقضاتها والتي اشار إلى نتائجها المأساوية.

ولنتوقف عند بعض الامثلة المستمدة من كتابه «الجزائر امة ومجتمع» (1965) حيث قام المؤلف وتقليدا لتنـاول ابن خلدون (ت. ف. 1967). بانتقـاد شديد لسلوكات وسيرة سكان المدن العاشقين للرقي و«الذوق الرفيع والمصاريف الجنونية» مستخلصا بأن كل هذه التصرفـات تشكـل عنـدنـا خطرا كبـيرا، وتحمل معها اضطرابات الاحساس الاخلاقي والمعنوي والاجتماعي والنظام الاقتصادي في كليته (لشرف م. 1965 ص. 307/308)

الا ان ما يثير الكاتب اكثر، هو ملاحظته انه فضلا عن هذه الخسائر الاقتصادية الاجتماعية، تضاف مسألة اخرى لا تقل خطرا والمتمثلة في اهانة الاديولوجية ويعني بها كل الانحرافت والخرافات، وعمليات التجهيل التي مست الدين الاسلامي، والتي يعدها اساس التناقضات الكبرى في المجتمع الجزائري. فمثلا نجد في المجتمع الجزائري ان «قادة نقابيين يعملون من اجل انتشار التعليم الديني في المدارس، وماركسيين يصل بهم الامر الى اعتبار الدين كحافز من اجل تدعيم الاشتراكية او مناهضة اضرابات مشروعة تحت حكم سياسي غامض (نفس المرجع ص. 32) وهم يعتقدون ذلك ويؤكدونه في احاديثهم ويوضحونه وهذا ما نحاول القيام به. يستنكر م. لشرف كل هذه التناقضات، الى حد الآن في تفسيرنا لهذه الوضعية الاجتماعية الثقافية الخاصة بالجزائر وهي الوضعية التي تقول بأن الفرد الجزائري «يتقاذف فيها بين استحالة عودته الى الماضي واستحالة اندماجه في حاضر حياته المعيشة والمتميزة بالتقدم الذي يطمح اليه المجتمع» نفس المرجع ص. 3.

اليس هذا دليلا اخر للتناقض الوجداني الثقافي الذي تكلمنا عنه طوال هذا الحديث وانطلاقا من هذه الظاهرة فانه يمكن ان توحي لنا بمدد اخر من الافكار الا اننا نعتقد ان هذا كاف بتتبعنا لهذه الوضعية من خلال مختلف مستوياتها الاجتماعية الثقافية.

— هل الجزائر بعد هذا تعد امام عتبة باب ثقافي مسدود؟

— هل وصلت الذروة من النضج السياسي والاجتماعي والثقافي الذي يسمح لها باختيار بين هذا التناوب الذي سبقنا الى الحديث عنه هـ. قورون (1977) في قوله «اتكون الجزائر: جزائر عمال ومواطنين... في نظام سياسي مفتوح. او جزائر «الاخ» في دولة اسلامية تسلطية او مستبدة؟ (قورون. هـ 1977 ص. 121).

فاذا كانت هذه المسألة تهم رجل السياسة بالدرجة الاولى فانها لا تخلو من الاهمية في نظر العالم النفسي الاجتماعي الذي يتصور ويقدر من جهته النتائج المستقبلية ـ كما هو الحال هنا ـ لأوضاع معيشة في هناء اجتماعي ثقافي عميق.

الا ان فهم وتنبؤ المستقبل يمر بالضرورة على معرفة الحاضر، فمن خلال انشاء شبكة حقيقية «لحاضر الجزائر يدعونا (هـ. صانسون) الذي سبقنا في تفسير الغموض الثقافي الذي يعيشه الفرد الجزائر بقوله (للجزائر نماذج من اجل قراءة ماضيه. ونماذج لقراءة مستقبله، لكن كيف يتمكن من قراءة ماضيه حاضره، ومن يقدم له هذه النماذج؟ فبينما تساعده الشخصيات الدينية في قراءة ماضيه بصفة خاصة، تعمل الافكار السياسية على قراءة ومعرفة مستقبله) (صانسون. هـ. ص. 18/9/).

والحاضر، الحاضر لابد من اكتشافه وتلمسه من خلال مدلول ومعنى هذا التلازم المزدوج للجزائري. حيث نجد «المقدس» يجانب التاريخي والعلمي ويتداخل بهما في بعض الاحيان.

وفي هذه الظروف الخاصة من «الخلط الثقافي» يتطلب الامر فهرسة النظم النفسية الاجتماعية، التي بفضلها تقاوم وتجابه الذات الجماعية هذه الوضعية وقد مكنت مختلف التحقيقات الاشارة الى ثلاث ميكنزمات اساسية :

الاتجهات الانتقائيـة والاختيـــــارية

تظهر هذه الاتجاهات لدى الفرد قصد التعبير عن خضوعه وتقلبه الاجتماعي ويعمل من خلالها على اخذه من النظام الاصيل للقيم، وانتقاء مدلولات مرجعية تشهد على تمسكه بالمعايير التقليدية. هذه الاتجاهات يمكن ان ترمز الى النظام الكلي التقليدي من خلال اجـزاء منها، او تعمل على راحة وإطمئنان الانا عند شعور الفرد بالانتماء الجماعي ولهذا السبب نجد هذه الاتجاهات تعمل في آن واحد على ازالة وابعاد الشعور بالذنب من جراء ما يمكن ان يحدث للافراد من مخالفات لعلاقاتهم بالتقاليد. تعد هذه الاتجاهات الانتقائية نجاحا للتمثلات والتصورات الدينية، خلافا للملاحظات التي تقدم الدين الاسلامي في كل مرة بوصف وباتهام يتمثل في التشدد ومعارضة التطور وكأنه بذلك قيمة سلبية، رغم التمسك الشديد ببعض اسسه كشهر رمضان، الذي يمثل اتحادا اجتماعيا.

ويمكن أن تعـود هذه الاتجاهات لتظهر في سير الطقوس وتحت دوافع مختلفة وخاصة عندما تفسر وبطريقة تقليدية مهام اجتماعية ذات حقيقة عصرية. كاختيار وانتقاء الزواج والختان للمرتبة الاولى في اهتمامات الانا، بالطقوس. الاختيار الذي سبق وأن اشرنا الى انه معـارض لحقيقة المعتقد الديني، الا ان هذا التفضيل لا يعبر الا عن ميل مادي للزواج والختان ويبرر القيام بعمليات مشبعة بالتباهي.

2 — الاتجاهات المتداولة :

تهدف هذه الاتجاهات الى الفصل في الزمن ؟
بين تحقيق سلوكين او رغبتين متعارضتين. كما تقدم هذه الاتجاهات امكانيات تحاشي الذنب واسقـاطـه عن الافراد من جراء اقبالهم على النماذج العصرية، عندما يتأكدون من أنهم يتمكنون من تعويضهم فيما بعد بنماذج اخرى تقليدية.

وبهذه الاتجاهات يمكن أيضا أن نوضح ميول هذه الجماعة نحو الحفلات المسيحية كعيد الميلاد «نـوال» الى جانب نفس الميول والجـاذبية نحو احياء الطقوس الجماعية التقليدية، اتجاهات مختلفة متعارضة الا انها متعايشة معا فهي (مجزأرة) ؟ في الزمان (أ. م روشيبلات سبانلي 1970) وتبقى التناقضات التي تعارض الواحدة منها الاخرى تبقى، بينما لا يؤدي اختيار طريقـة انجـاز جهة الى غياب الجهة الاخرى، وفي المثال المشار اليه سابقا، يتم الاحتفال باليوم الاول للسنة الميلادية تحت حذر ومنطق ادخال البهجة والفرحة على الاطفال او القيام باحتفال شكلي، . . . . . ومن اجل ازالة ذنب هذه الافعال تتجه الميول الذاتية بشكل متزايد نحو الطقوس (س كامري 1413 ص 464) وهكذا ومن خلال زيادة الرغبة في تجديد واحياء الحفلات تتقدم الطقوس الجماعية معارضة لها بهدف التأكيد على رفعتها الاجتماعية.

ولا بد ان نعترف ان هذا التداول في الاتجاهات قد ميز الجماعات المتوسطة التي تتأرجح هي أخرى وتتردد دون جدوى بين قطب عصري واخر تقليدي، ومن اجل معرفة هذا الذهاب والاياب المغير والمزعج ينبغي علينا من جهة تحاشي التحليل الاحصائي والابتعاد عنه. ومن جهة اخرى تقديم أرائهم لتفسير ديناميكي، ويتجلى ذلك في الفارق الواضح بين اتجاهاتهم الاجتماعية وتصوراتهم الاساسية للنماذج الاجتماعية الثقافية لواقعهم المعيش.

فبينما تدعو الواحدة من هذه الاتجاهات الى طموحات ذات طابع مادي لتمكن الافراد من الارتقاء الى مستوى الفيئات الاجتماعية العليا تطلب الاخرى الظروف التقليدية وتدعو اليها كشروط اساسية للاتزان النفسي. ولا يعبر بالتالي الاقبال النهائي للجماعات المتوسطة على التقاليد الشعبية الا عن بروز توتر داخلي، ولا تعد بالتالي القدرة على توظيف القيم التقليدية في هذه الحالة الا ميلا بالسلوكات نحو حل للصراعات، وبهذا لابد ان يقال انها تشكل كذلك دفاعا ديناميكيا دائما موجها امام كل تغيير يمكن ان يمس تكامل الانا.

3 — الاتجاهات التوفيقية

تشكل اهم وغالبية السلوكات النابعة عن عملية العلاقات بين الثقافات ومباشرة اي خلط وامتزاج ثقافي عام. وتمكن من التقمص النشيط للقيم المتناقضة. تدفع هذه الاتجاهات في معظم الحالات الى القيام باستعمال عناصر من كلا النظامين المتعارضين في ان واحد، ويتضح من هذا ان هذه الاتجاهات تعد تعبيرا بارزا للتناقض الوجداني الثقافي وهذا لسببين رئيسيين : لأنها تشكل في وضعية المثاقفة مظهرا من مظاهر سلوك اجتماعي بين الافراد يعبر من خلاله الفرد عن التزامه بانتماء ثقافي مزدوج، وسلوكا عندما يتحول الى مستوى من التفكير العقلي والمنطقي — يدعو الى احياء الوضعية «البين الثقافية» لما يقدمه للافراد ممن امكانيات ترقية في اطار ثقافي غير جامد متشبع ومتنوع. هذا الاتجاه يتلاقى مع مبادىء بعض المنظرين في ميدان التغير الاجتماعي والذين يعتبرون المثاقفة وسيلة ديناميكية لترقية وتحضير شعوب مستعمرة استعمارا قديما او جديدا.

(فعلى هامش افكار هذه اللغة المتكررة يمكن تحديد الابعاد النفسية الاجتماعية في الاتجاهات التوفيقية بعد ان يتم وضعها في اطار التغير الاجتماعي الذي - ولابد ان يقال - يعد مقلقا ومزعجا).

ان تقبل التغير الاجتماعي بدون حد، والرذوخ الى ميوله الطموحة، معناه التعهد بتتبع طريق غير آمن، والتشكيك في المزايا الاجتماعية والاسرية للثقافة القديمة كالكف عن التضامن العائلي وشذوذ العلاقات بين الجنسين. وكذلك وبصفة خاصة، الاحساس بفقدان الهوية الثقافية. تلك هي اهم الثقافتين فاننا بذلك نستجيب لكل الاتجاهات والمتطلبات العصرية والتقليدية : اي نتطور دون ان ننكر كياننا وانفسنا، وتحقق كذلك مختلف الرغبات المتعارضة في معظمها، هذا فضلا عن تحاشي كثير من الشعور بالذنب.

ان اهم مثال مميز لهذا التوفيق يقدمه التباهي الذي يتبع الاحتفال بالطقوس الارثدوكسية واحيائها، حيث نلاحظ عند هذه الجماعة في الوقت نفسه رغبتها في القيم التقليدية وتأكيد مالها وبما ان هذا التباهي لا يتم الا بأدوات عصرية، فانه يكون بالتالي مناسبة لابراز الرغبة النرجسية (ارادة التفوق الاجتماعي للانا) لانه - اي هذا التباهي - يتم تحت غطاء احياء التقاليد. ويمكن اعتبار هذا الاتجاه احسن مثال في استعمال الافراد للنظام البين الثقافات، ومن فوائده النفسية انه يلطف الصراعات عندما لا يتمكن من التحكم فيها. وقد ذهب كثير من الاراء المصابة بالمثاقفة الى تقبل اوضاع البين الثقافات بدلا من تجاوز احد اطرافها التقليدي او العصري على الاخر. ونستخلص بالتالي ان البحث عن الحل التوفيقي الذي يمكن تقليص الصراع بين القيم وتصادمها هو الذي ادى الى استعمال الفرد لهذه الاتجاهات، التي يمكن ان تظهر في الواقع على شكل اتجاهات متداولة وانتقائية او توفيقية في كثير من الاحيان لانها اكثر تعبيرا.

وتحاشيا للاتساع فان كل هذه السلوكات تجد اثارتها في التناقض الوجداني الثقافي الذي يبدو في اخر تحليل انه منبع عميق لا تزان صراع القيم.

وبما ان التناقض الوجداني يعمل من جهته في خلق ميكانزمات تساهم في حياة الوضعية البين الثقافية وعلى استمرارها، يكون بالتالي قوة منظمة لا تزان التغير الاجتماعي : وهذا باستقطابه نحو بعض القطاعات من الحياة الاجتماعية الثقافية والسهر على مراقبة انحرافاته الممكنة - وقد لمسنا في الحياة الذاتية للمثاقفية انها ليست شكلا جامدا للحياة وانما هي عكس ذلك فهي وضع ديناميكي يحتوي على اكثر من ميزة بين نقائصها الهامة : الشعور بالذنب والقلق، القلق من مشاهدة المثاقفة في اوضاع منحلة الا تزان، ومشاهدة القيم الجديدة تتجاوز وتطغى على القيم القديمة او ربما تزيلها في هذه الحالات تصبح المثاقفة عملية استئصال ثقافي وتجهيل من جراء تعقد يمسها في بعدها المعيش.

أما وقد طرح موضوع هذا القلق فان الفرد المثقف يؤكد من جهته ويؤكد على رغبته في تدعيم جهازه الدفاعي، ويتجه بالتالي نحو المقدس الذي يجد فيه حاجزا مانعا مختارا من اجل تعويض قلقه أو تخفيفه، الا ان هذا الجهاز سيقدم له وظائف اخرى غير التي ترجاها منه. وهذا جانب هام من عملية المثاقفة.

1) - سنعرف انها لاتزال كذلك.

2) - ان المرجع الديني (الاسلام) يؤدي هنا دورا يفسر الاتجاه نحو التصنيع، والحق يقال عندما اشار كاملري الى ان الدين الاسلامي «الذي يتميز بتمسك شعبي قوي يتضح انه بعيد عن كل المنازعات في النظم الاجتماعية الاقتصادية» كاملري 1978 ص. 67.

3) - هذه الملاحظة لتي يقوم بها ج. بارك (1969) على البلدان العربية بصفة خاصة وبلدان المغرب عموما نعتقد انها تشكل حقيقة الاوضاع الاجتماعية الثقافية في الجزائر.

4) - يستحسن الحديث هنا عن الترقية وفق مفهوم باستيدر (1970) اي التغير الجذري في البنيات.

5) - الوضعية البين الثقافية المميزة للجزائر تتطلب تواجد اكثر من ثقافتين في مواجهة دائمة الامر الذي يجعلنا نتكلم عن الثقافة بالجمع.

6) - امثلة مستمدة من تحقيق قامت به ر. طوالبي (1979) حول «الاتجاهات وتصورات الزواج في الجزائر».